

تقــديم

ترجمة رسالة من جناب الدكتور رينيه برناند مدير المصححة الأسبق
بمناسبة انقضاء عشرين عاماً على بدء العمل بالمصححة

عزيزى الدكتور عبد الرؤوف :

إننى لأستجيب لدعوتك إياى للمساهمة فى رسالتك التى تزمع كتابتها بمناسبة
مضى عشرين عاماً على إنشاء المصححة ؛ ولقد رأيت من الأفضل
أن أرسل لك هذا الخطاب ؛ ويسرنى أن أراه منشوراً بين
ما ستذكره فيها عن أعمال المصححة وأخبارها ونواحي نشاطها .
ذلك لأننى دائماً الشعور برباط وثيق من المحبة العميقة
والاهتمام الدائم بمصير المصححة التى عملنا معاً على تنظيمها
خلال (١٩٢٦ إلى ١٩٢٩) تلك السنوات المليئة بالصعاب
وحلوا الذكريات . وإن هذه الفترة من حياتى لتزاحم ذكرياتها على خاطرى متلاحقة .
لقد تركنا وطننا سويسرا — بلاد المراعى والغابات والمياه الدافقة —
لنجد أنفسنا فجأة وسط الطبيعة الصحراوية الجرداء ، ولم تكن مصححتنا العتيقة
أكثر من بنيان مهدم ؛ وكان على أول الأمر أن أجد مأوى لعائلتى : زوجى
بصحتها الحساسة ، وأطفالنا الخمسة ، وأصغرهم عمره أقل من عام .

وقد اخترنا ضاحية المعادى الفيحاء لسكنانا . ولكن بعد شهر من مقامنا
بها قالت لى « مدام برناند ، زوجى : « ليس لنا مقام فى هذه الجنة ، لقد جئنا
إلى مصر فى سبيل المرضى ، فلنذهب لنعيش فى جوارهم !! »



وانتقلنا إلى حلوان حيث خصصت لنا وزارة الأوقاف في مبنى المصححة مسكناً ظريفاً ،

وكان لزاماً علىّ أن أتعلم العربية — وهى لغة لا تبدو فى الواقع سهلة — غير أننى سرعان ما تعلّمت على الأقل كلمة «معاش» ، تلك الكلمة التى كم استنجدت بها فى الملمات ، بحيث أدخلت استعمالها فى سويسرا ؛ وكان علينا فوق ذلك أن نندمج فى بيئتنا الجديدة ، وأن نعمل جاهدين فى تنظيم البناء المتسع الأرجاء الذى يجب أن يعد على وجه السرعة ، ليصبح ملاذاً لمرضى السل البائسين فى مصر .

ولأنك لتذكر يا صديق العزيز تلك الجهود الذى بذلناها . لقد اتسع صدر وزارة الأوقاف لمطالبنا المتعددة المتتالية . وقد لقينا أحسن الاستعداد والتشجيع من ولاية الأمر بالوزارة وحضرة صاحب السعادة إبراهيم فهمى باشا (وكيل الوزارة حينئذ) وحضرة صاحب العزة الدكتور سالم بك هنداوى ، وحضرة الدكتور نظيم ، ولكننا كنا نحس أحياناً أن العبء الذى ننوء به أثقل مما تحمله أكتافنا وتحمله قلوبنا ؛ وكان يبدو لنا أن المهمة الملقاة على عاتقنا مستحيلة التحقيق فى الوقت المحدود المقدر لها . ولكن صوتاً كان يتردد صدىه فى طوايا ضميرنا باستمرار : أن لا بد من إنقاذ المسلولين فى مصر ؛ وكان هناك إحساس عميق يخالجننا يستحثنا ، هو الشعور بالتبعة التى شرفنا بجلالة الملك المعظم فؤاد الأول بتحميلنا إياها ؛ وكان لزاماً علينا أن نثابر جاهدين للقيام بأعبائها .

وهكذا رويداً رويداً بفضل تآزر الجميع بدأت المصححة تصبح صالحة لأداء رسالتها ، وتوافد المرضى رعيلاً إثر رعييل ، ونال الشفاء كثيرون منهم ، وثبت أن أثر الجو الصحراوي فى شفاء السل أثر مدهش ، خصوصاً فى فصل الشتاء ؛ وحتى

أثناء شهور الصيف — حين كنتَ تقوم وحدك بإدارة المصلحة ، موفور النشاط
حي الضمير — لم تبطئ سرعة التقدم . ولقد أيدت هذه الحقائق ما أمتاز به الملك
المعظم فؤاد الاول من الزكاة وبعد النظر ، إذ كان أول من فكر في اختيار حلوان
مكاناً لإنشاء المصلحة .

وإنك لتذكر — يا زميلي العزيز — ذلك اليوم الذي لا ينسى ، ١٩ فبراير
سنة ١٩٢٨ ، تاريخ الافتتاح الرسمي ، فقد كان جزامنا على جهودنا ، كان يوماً
صحواً من أيام وطنك الجميل ، تقاطر فيه سرة القاهرة ووجهاءهم ليحيطوا بالملك
حين قدم وزير الأوقاف صاحب المعالي الغرابي باشا إلى مولاه (مصحته)

ولقد جاس الملك خلال المصلحة يواسي مرضاها ، ويحييهم بعطف ؛ وأعجب
جلالته بملابس الخدم ، ونظافة غرف المرضى ، وبالكل (الناموسيات) وقد
زانتها شرائط حمراء في أقسام الحريم ، بل في أقسام الرجال أيضاً ، وحتى
المباصق كانت غير عاطلة من الزينة . . .

ولقد شعرت بشيء من الحرج حين سألتني الملك : « أهذه هي
الحال دواما ؟ »

وقد تطلع المرضى من الشرفات إلى ملكهم يحيونه بحماس حين نزل إلى
الحديقة ، فقال لي جلالته باهتمام وعطف : « قل لهم أن لا يرفعوا أصواتهم لئلا
يؤثر ذلك في صدورهم » ، ولكن تحياتهم ودعائهم للملك واعترافهم بحميلة
كانت تتعالى وتزايد .

وقد سار كل شيء بعد ذلك على ما يرام ، اللهم إلا بعض المضايقات المشهورة
التي سببتها لنا طريقة الصرف (بحار المصلحة) ، إلا أنني أرجو أن تكون

غابة شجر الكافور التي كان مزمعاً إنشاؤها قد تكاثفت الآن، وتولت التخلص من مياه المصحة الموبوءة.

وأخيراً حل يوم مُتجهم حزين في أواخر صيف عام ١٩٢٩: يوم الوداع.. فلقد كانت صحة زوجي ومشكلة تعليم أولادي الخمسة عوامل حاسمة في تقرير الرحيل، إذ كان يسعدني أن أظل في مصر بضع سنوات أخرى لأساهم في إنشاء المستوصفات وغيرها من معاهد العلاج.

وقد كان وداعنا المؤثر للرضى وأحبائنا في مصر فراقاً مادياً لا غير، أما عواطفنا وأفكارنا فظلت على اتصال دائم بهذا البلد الذي اعتبرناه وطننا لنا خلال ثلاث سنوات كاملة.

لقد كتبتَ لي اليوم — أيها المدير العزيز — وطي خطابك صور شهادة على مبلغ ما في عملك من مجهود قوى منتج. فاسمح لي أن أهنئك على هذا الجهد البديع وتلك النتائج الرائعة. وأنا لأعرف أن مصحة فؤاد تتولاها أياد قادرة، وليس هناك شيء في الوجود يزيد نفسي رضى وشكراً لله أكبر من على أن عملنا العظيم الذي اضطلعنا به معاً اطلاق الرواد منذ عشرين عاماً لم يكن عبثاً بل انتج هذه الثمار لصالح بلد سأظل أنا وعائلتي نكن له الحب دائماً.

وأرجو أن تبلغ جميع أحبائنا في مصر وفي حلوان تحياتنا القلبية، وأطيب تمنياتنا لمستقبل وطنك الجميل، ومستقبل مصحة فؤاد الأول على الأخص، ولأولئك المرضى الذين سيقصدونها ليجدوا فيها الصحة والعافية، مع تحيات المودة من

الدكتور رينيه برناند.

لوزان (سويسرا) في ٨ يونيو ١٩٤٦

تمهيد وإيضاح

لكفاح السل في مصر خلال العشرين عاماً الأخيرة قصة رائعة شائقة تستحق التسجيل لطرافتها. وأحداثها لا تزال حية ماثلة في أذهان الذين خاضوا غمار معاركها الأولى، وشهدوا وقائعها من وراء الستار، وما زالوا إلى اليوم أحياء يستعيدون بينهم وبين أنفسهم هذه الذكريات حلوها ومرها، دون أن يعنى أحدهم بتدوين هذه الذكريات، ونشرها على الملأ، لأن تيار الحياة يجرفهم معه، وأعباءها تثقل كواهلهم، فلا تواتيهم الظروف للعكوف على الكتابة والنشر. ولقد قدر لي في صدر شبابي أن أشهد المعركة من بدايتها الأولى، وأن يدفعني حماس عجيب إلى أن أخوض غمارها جندياً بسيطاً مغامراً بكل ما أملك من جهد. وكان القدر يسوقني أمامه، وأنا في اندفاعي لا أتلفت إلى الوراء، ولا ألوى على شيء. وها أنذا بعد أكثر من عشرين عاماً، أجد نفسي في مكان المختار — مصحة فؤاد الأول بحلوان — أرقب معركة كفاح السل في مصر، وأشهد أحداثها، وأسجل تطوراتها في هدوء وصمت.

وهذه الرسالة القصيرة، التي سأتناول فيها ذكرياتي عن مصحة فؤاد بحلوان منذ إنشائها إلى الآن، لا تهدف إلى أبعد من تسجيل لمحات عابرة عن جهود المعهد الذي فكر فيه وأمر بإنشائه ورعاه أهل عبقرى عظيم، هو المغفور له حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول، الذي تتشرف المصحة بحمل اسمه الكريم. فمن حق المصحة على، وقد مزجت حياتي بحياتها هذا الأمد الطويل، أن أؤرخ لها، وأن أسجل بعض جهودها في إيجاز بالغ.

وأنى لأغالب فى نفسى حين أتصدى لهذا الحديث حياء يكاد يمنغنى عن الكتابة ، لولا إيمانى بأن نزعة أداء الواجب يجب أن تتغلب على كل اعتبار آخر ، فالحديث الذى يتعين على أن أسوقه ليس أكثر من رواية جندى صغير ساهم بنصيبه الضئيل المحدود فى عمل إنسانى جليل ، وهناك آخرون من حقهم على أن أسجل لهم ما بذلوه من جهود ليس من الانصاف أن تطوى أخبارها عن الناس إلى الأبد .

إن فكرة إنشاء أول مصحة فى مصر لعلاج مرضى السل هى أول خطوة إيجابية خطتها البلاد فى سبيل كفاح مرض فتاك عضال ، كان يحترم آجال ضحاياهم الكثيرين فى مصر فى صمت مروّع رهيب ، دون وازع ولا رادع ؛ وسنرى كيف تطورت هذه الفكرة وأصبحت حقيقة واقعة ، وما اكتنف التنفيذ من عقبات وصعاب .

وفى وسعى أن أؤكد تأكيد علمى ، أنه لولا النجاح الذى لقيته هذه المصحة لما تطور كفاح السل فى مصر هذا التطور السريع الذى يشهده الذين عاصروه منذ البداية بكثير من الغبطة والاستبشار .

ومن حق القارىء الكريم أن أصارحه بأننى حين بدأت أفكر فى إعداد هذه الرسالة قدرت أنها يجب أن لا تكون رسالة عليية جاقة ضافية الذيول لا يهضمها غير المشتغلين بكفاح السل ، بل قررت أن أجعل منها قصة إنسانية سلسلة متسقة السياق ، لا تخلو من طرافة يستسيغها القارىء العادى فى سهولة ويسر ، ويستوعب محتوياتها فى وقت جد قصير دون مشقة أو ملل .

وللراوى تمهيد لا بد منه لبدء القصة من أولها :

فى شتاء سنة ١٩٢٥ ، بعد أن انتهيت من بعثى الدراسية فى جامعة كبرى ديج



منظر عام للمصححة من الواجهات القبليه ، وُرى الجناح الشرقى إلى اليمين ، والجناح الغربى إلى اليسار .
والأخير هو الذى استُخدم فقط عند إنشاء المصححة فى سنة ١٩٢٦ .
ويلاحظ أن نصف الجناح الشرقى فقط يبدو فى الصورة أما نصفه البحرى فغير ظاهر .

بانجلترا ، كنت أقضى في ليزان (Leysin) بسويسرا إجازة دراسية عند الدكتور روليه (Dr Rollier) الذى يعالج مرض السل الجراحى بأشعة الشمس . وقد ترمى إلى بمحض الصدقة ، من طالب طب مصرى كان يستشفى في ليزان ، أن هناك مفاوضات بين الحكومة المصرية وجناب الدكتور (ينيه برناند Dr René Burnand) مدير المصلحة الشعبية بليزان ليتولى إدارة مصلحة مصرية في حلوان تزمع الحكومة إنشائها لعلاج أمراض الصدر .

وكان هذا الخبر العادى العابر قبساً إلهياً فتح أمامى آفاقاً مترامية من الآمال . ولم أكن قد زرت حلوان من قبل ، ولكنى كنت أسير في طرقات ليزان الجبلية اتطلع إلى ما فيها من مصحات شاحخة ، فأرى بعين الخيال مصلحة مصرية في حلوان ، قائمة على سفح ربوة عالية ، وأننى أسير في طرقاتها وأدخل حجراتها وأرعى مرضاها ناشطاً دموياً .

ولست أدري إلى اليوم مبعث ذلك الشعور الغلاب الذى استولى على بحيث قرّ في ذهني أننى سأكون المساعد المصرى للمدير السويسرى للمصلحة المصرية التى لم تكن في ذلك الحين غير مجرد فكرة لا أدري عن ظروفها شيئاً ؛ ولكنه الشباب والخيال الشعارى الجامح هما اللذان صوراً لى أنه لا مستحيل على القلب الشجاع ، فتركت ليزان إلى دافوس پلاتز (Davos - Platz) أكبر وأقدم مراكز المصحات في سويسرا لأعد نفسى لحمل الرسالة التى لم ينتدبنى أحد لحملها !

وحين عدت إلى مصر قصدت وزارة الأوقاف في اليوم التالى لوصولى والتمست مقابلة حضرة صاحب العزة الدكتور سالم بك هنداوى ، مدير القسم الطبى في ذلك الحين ، دون معرفة سابقة ، بل دون أن أتزود بأية توصية أو شفاعة ؛ وسألته أن يتيح لى فرصة خدمة وطنى في منصب وكيل مصلحة فؤاد . . . وهو طلب جرىء حقاً من طبيب شاب مغمور لا وسيط له ولا شفيع . . .

ولقد كان هذا اللقاء الأول بيني وبين هذا الرجل الكريم النبيل نقطة تحول حاسم في حياتي العملية ؛ وإني لأتهز هذه الفرصة لأؤدى له بعض ما في عنقي من دين ، بأن أعلن على الملأ جاداً صادقاً ، أن حضرة صاحب السعادة الدكتور سالم هندواوى باشا هو الذى أخذ بيدي إلى منصب وكيل مصحة فؤاد الأول دون معرفة سابقة أو شفاعة لاحقة ، ولولا ما في طوايا هذا الرجل النادر الصفات من أمانة وإخلاص وشرف ونبل لفاز بهذا المنصب غيرى ممن تزودوا بشفاعات الكبراء ووساطة ذوى الجاه والنفوذ ...

ولقد ظلت مصحة فؤاد الأول بحلوان منذ ولجتُ بابها لأول مرة ، ولا تزال إلى الآن ، شغل حياتى الشاغل ، والميدان الذى اخترته لبذل جهدى فى خدمة وطنى ، وإني لأدين لها بكل شيء ، وأعز بها كما يعتز الابن البار بأمه الرموم ... وها أنذا فى عيدها العشرين أروى قصتها ، وأتحدث عنها إلى الناس فى حنان وإحساس عميق بالوفاء والاخلاص ، باعتبارها المدرسة التى أتلقى إلى اليوم بين جدرانها الدروس ، وأستجمع التجارب ، وأختزن الذكريات ، وأستقبل كل يوم وفوداً متلاحقة من أبناء وطنى المصدورين ، الذين أخذتُ على نفسى عهداً أمام الله أن أقضى الحياة فى خدمتهم راضياً مغتبطاً سعيداً ، فما عاش من عاش لنفسه فقط .